النهي عن موالاة الكفار

قال الله تعالى:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾. (سورة آل عمران)

التحليل اللفظي

أولياء: جمع ولي وهو في اللغة بمعنى الناصر والمعين.

قال الراغب: وكلّ من ولي أمر الآخر فهو وليه ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وليّ الذين آمنوا﴾[1].

تقاة: مصدر بمعنى التقيّة وهي أن يدارى الإنسان مخافة شرّه.

قال ابن عباس: «التقيّة مداراة ظاهرة، وقد يكون الإنسان مع الكفار أو بين أظهرهم، فيتقيهم بلسانه ولا مودة لهم في قلبه»[2].

قال القرطبي: وأصل تُقاة (وُقَيَة) على وزن فُعَلَة مثل: تُؤَده وتُهَمَة،

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٥٣٣.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيّان ٢/٤٢.

obeikandi.com

قلبت الواو تاء والياء ألفاً[1].

وقال أبو حيان: والمصدر على فُعَلة جاء قليلاً ولو جاء على المقيس لكان اتقاءً ونظيره قوله تعالى: ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾.

والمعنى: إلا أن تخافوا منهم خوفاً فلا بأس بإظهار مودتهم باللسان تقية ومداراة دفعاً لشرهم وأذاهم من غير اعتقاد بالقلب.

المصير: المرجع والمآب، والمعنى: رجوعكم ومآبكم إلى الله فيجازيكم على أعمالكم.

وجه المناسبة

لمّا بيَّن تعالى في الآيات السابقة أنه مالك الملك، المُعِزّ المُذِلّ، المتصرِّف في الكون حسب مشيئته وإرادته، وأنه القادر على إعطاء الملك لمن شاء، ونزعه ممن شاء، وأن العزة والذلة بيده، نهى المؤمنين في هذه الآيات عن موالاة أعدائه لتكون الرغبة فيما عنده دون أعدائه الكافرين.

سبب النزول

١ ــ نزلت هذه الآية الكريمة في شأن قوم من المؤمنين كان لهم أصحاب من اليهود كانوا يوالونهم فقال لهم بعض الصحابة: اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا مصاحبتهم لئلا يفتنوكم عن دينكم ويضلوكم بعد إيمانكم فأبى أولئك النصيحة، وبقوا على صداقتهم ومصاحبتهم لهم فنزلت الآية الكريمة: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء. . .﴾[2] الآية.

٢ ــ وروى القرطبي في تفسيره عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في (عُبَادة بن الصامت) الأنصاري البدري، كان له حلفاء من اليهود فلمّا خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال له عُبادة: يا نبيّ الله إن معي خمسمائة من

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٥٧، وانظر البحر المحيط ٢/٤٢٤.

(٢) جامع البيان للطبري ٣/٢٢٨.

اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. . .﴾ الآية.

المعنى الإجمالي

نهى الله عز وجلّ عباده المؤمنين عن موالاة الكافرين أو التقرب إليهم بالمودة والمحبّة، أو مصادقتهم لقرابة أو معرفةٍ، لأنه لا ينبغي للمؤمنين أن يوالوا أعداء الله إذ من غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله عز وجل وبين محبة أعدائه لأنه جمع بين النقيضين فمن أحبّ الله أبغض أعداءه.

فلا يجوز للمسلم أن يوالي غير المؤمنين فيتخذ من الكفّار الذين يتربصون بالمؤمنين السوء أولياء يصادقهم ويتودّد إليهم أو يستعين بهم، ويترك إخوانه المؤمنين فليس بين الإيمان والكفر نسب ولا صلة، فالآية الكريمة تحذّر من موالاة الكافرين إلا في حال الضرورة وهو حال اتقاء شرهم وتجنب ضررهم أو الخوف منهم فتجوز موالاتهم بشرط أن يقتصر ذلك على الظاهر مع إضمار الكراهية والبغض لهم في الباطن، ثم ختمت الآية الكريمة بالوعيد الشديد الذي يدل على عظم الذنب الذي يرتكبه من يخالف أوامر الله ويوالي أعداءه.

وجوه القراءات

١ ــ قرأ الجمهور: (إلّا أن تتّقُوا منهم تُقَاةً) وقرأ يعقوب وأبو الرجاء والمفضّل (تقيّة) بالياء المشددة ووزنها فعيلة والتاء بدل من الواو[1].

وجوه الإعراب

أولاً: قوله تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ لا ناهية جازمة والفعل بعدها مجزوم وحرك بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين و (يتخذ) ينصب مفعولين (الكافرين) مفعول أول و (أولياء) مفعول ثان.

---

(١) الألوسي ٣/١٢١، والقرطبي ٤/٥٧، ووجوه القراءات للكعبري ص ١٣٠.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إلاّ أن تتقوا منهم تقاة﴾ الاستثناء مفرغ من عموم الأحوال، أي: لا تتخذوهم أولياء في حالٍ من الأحوال إلاّ في حال اتقاء شرهم وضررهم، و (تقاة) مفعول مطلق لـ (تتقوا) وجوّز بعضهم أن يكون مفعولاً به، أي: إلا أن تتقوا شيئاً حاصلاً من جهتهم.

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى: التعبير بقوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ بدل قوله: (ومن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين) للاختصار، واستهجاناً بذكره، وتقبيحاً لهذا الصنيع، فموالاة الكافرين من أقبح القبائح عند الله.

اللطيفة الثانية: قوله تعالى: ﴿فليس من الله في شيء﴾ ليس من الله، أي: ليس من دين الله أو شرع الله، فهو على حذف مضاف، والتنكير في شيء للتحقير، أي: ليس هذا في قليل أو كثير من دين الله لأنه جمع بين المتناقضين وقد قال الشاعر:

تودّ عدوّي ثم تزعم أنني ... صديقك ليس النَّوْكُ[1] عنك بعازب

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، ولو جاء على النظم الأول لكان (إلا أن يتقوا).

اللطيفة الرابعة: إظهار اسم الجلالة مكان الإضمار في قوله تعالى: ﴿وإلى الله المصير﴾ لتربية المهابة والروعة في النفس، وتقديم الخبر على المبتدأ يفيد الحصر.

الآيات الدالة على تحريم موالاة الكافرين

وفي هذا المعنى الذي ذكرناه وهو حرمة موالاة الكافرين نزلت آيات كثيرة منها ما هو خاص بأهل الكتاب ومنها ما هو عام للمشركين نكتفي بذكر بعض هذه الآيات الكريمة:

---

(١) النَّوك: الجنونُ والبَلَهُ، يريد أن يقول: إن الجنون عنك ليس بالغائب ولا بالبعيد.

obeikandi.com

١ ــ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا النصارى أولياء بعضهم أولياء بعض﴾.

٢ ــ وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة. . .﴾.

٣ ــ وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾.

٤ ــ وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً. . .﴾.

٥ ــ وقال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله. . .﴾ إلى آخر ما هنالك من آيات كريمة في هذا الموضوع.

الأحكام الشرعية

الحكم الأول: ما هو حكم الاستعانة بالكفار في الحرب؟

اختلف الفقهاء في جواز الاستعانة بالكفار في الحرب على مذهبين:

(أ) **مذهب المالكية**: أنه لا يجوز الاستعانة بالكفار في الغزو أخذاً بظاهر الآية الكريمة، واستدلوا بما ورد في قصة (عبادة بن الصامت) كما وضّحها سبب النزول. واستدلوا كذلك بما روته عائشة رضي الله عنها أن رجلاً من المشركين كان ذا جرأة ونجدة جاء إلى النبي ﷺ يوم بدر يستأذنه في أن يحارب معه فقال ﷺ له ارجع فلن أستعين بمشرك.

(ب) **مذهب الجمهور (الشافعية والحنابلة والأحناف)**: قالوا يجوز الاستعانة بالكفار في الحرب بشرطين: أولاً الحاجة إليهم. وثانياً الوثوق من جهتهم، واستدلوا على مذهبهم بفعل النبي ﷺ فقد استعان بيهود قينقاع وقَسَمَ لهم، واستعان بصفوان بن أمية في هوازن فدَلّ ذلك على الجواز، وقالوا في الردّ على أدلة المالكية بأنها منسوخة بفعله ﷺ وعمله، وقال بعضهم: إن ما ذكره المالكية يحمل

على عدم الحاجة أو عدم الوثوق حيث إن النبي ﷺ لم يثق من جهته، وبذلك يحصل الجمع بين أدلة المنع وأدلة الجواز.

الحكم الثاني: ما معنى التقية وما هو حكمها؟

قال ابن عباس: التقية أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يقتل ولا يأتي مأثماً. وعرّف بعضهم التقيّة بأنها المحافظة على النفس والمال من شرّ الأعداء فيتقيهم الإنسان بإظهار الموالاة من غير اعتقادٍ لها.

قال «الجصاص» في أحكام القرآن: «وقد اقتضت الآية جواز إظهار الكفر عند التقية وهو نظير قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ وإعطاء التقية في مثل ذلك إنما هو رخصة من الله تعالى وليس بواجب، بل ترك التقيّة أفضل. قال أصحابنا فيمن أكره على الكفر فلم يفعل حتى قُتل: إنه أفضل ممن أظهر، وقد أخذ المشركون (خُبَيْب بن عدي) فلم يعط التقية حتى قتل فكان عند المسلمين أفضل من (عمار بن ياسر) حين أعطى التقية وأظهر الكفر، فسأل النبي ﷺ عن ذلك، فقال كيف وجدت قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان، فقال ﷺ وإن عادوا فعد...» وكان ذلك على وجه الترخيص[1].

قصة مسيلمة الكذاب مع بعض الصحابة

روي أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب النبي ﷺ فقال لأحدهما أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فترك سبيله، ثم دعا بالآخر[2]، وقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: إني أصم، قالها ثلاثاً، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: (أمّا هذا المقتول فمضى على صدقه ويقينه وأخذ بفضيلة فهنيئاً له، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه).

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢/١١، وتفسير ابن كثير ٢/٦٠٩.

(٢) ذكر الحافظ ابن كثير ٢/٦٠٩، أن اسم هذا الرجل «حبيب بن زيد» الأنصاري، وفي رواية ابن كثير: فلم يزل يقطّعه إرباً، إرباً وهو ثابت على ذلك. اهـ.

الحكم الثالث هل تجوز تولية الكافر واستعماله في شؤون المسلمين؟

استدل بعض العلماء بهذه الآية الكريمة على أنه لا يجوز تولية الكافر شيئاً من أمور المسلمين ولا جعلهم عمالاً ولا خدماً، كما لا يجوز تعظيمهم وتوقيرهم في المجلس والقيام عند قدومهم فإن دلالته على التعظيم واضحة، وقد أُمِرْنا باحتقارهم بقوله سبحانه: ﴿إنما المشركون نجس﴾.

قال (ابن العربي): وقد نهى عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري عن شخصٍ ذمي استكتبه باليمن وأمره بعزله.

قال (الجصاص): (وفي هذه الآية ونظائرها دلالة على أن لا ولاية للكافر على المسلم في شيء، وأنه إذا كان للكافر ابن صغير مسلم بإسلام أمه، فلا ولاية له عليه في تصرف ولا تزويج ولا غيره، ويدل على أنّ الذمي لا يعقل جناية المسلم، وكذلك المسلم لا يعقل جنايته، لأن ذلك من الولاية والنصرة والمعونة)[1].

أقول: مما يؤيد هذا الرأي ويرجحه قوله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾.

الحكم الرابع: حكم المداراة لأهل الشر والفجور:

تجوز مداراة أهل الشر والفجور، ولا يدخل هذا في الموالاة المحرمة فقد كان عليه الصلاة والسلام يداري الفسّاق والفجّار وكان يقول: «إنا لنَبشُّ في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم» أو كما قال. قال بعض العلماء: إن كانت فيما لا يؤدي إلى ضرر الغير كما أنها لا تخالف أصول الدين فذلك جائز، وإن كانت تؤدي إلى ضرر الغير كالقتل والسرقة وشهادة الزور فلا تجوز البتة، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢/١٢.

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

١ ــ موالاة الكافرين، ومحبتهم، والتودّد إليهم محرمة في شريعة الله.

٢ ــ التقية عند الخوف على النفس أو المال، أو التعرض للأذى الشديد جائزة.

٣ ــ الإكراه يبيح للإنسان التلفظ بكلمة الكفر بشرط أن يبقى القلب مطمئناً بالإيمان.

٤ ــ لا صلة بين المؤمن والكافر بولاية، أو نصرة، لأن الإيمان يناقض الكفر.

٥ ــ الله تعالى مطلع على خفايا النفوس، لا تخفى عليه خافية من أمور عباده.

خاتمة البحث:

حكمة التشريع

من مظاهر عزة المؤمن، أن يستعلي بإيمانه فوق مغريات الحياة، فلا يذلُّ لأحد، ولا يتزلف لإنسان، لأن صلته بالله عز وجل تجعله عزيز النفس، لا ينافق ولا يُرائي، ولا يداهن على حساب الدين، لأنه يستمد تلك العزة والكرامة من العزيز الحميد، فهو أمام الأعداء طودٌ شامخ، يستعلي على كل قوة في الأرض، فكيف يمدُّ يده إلى أعداء الله، وكيف يستعين بغير الله؟.

وقد حرَّم تعالى على المؤمن موالاة الكافرين أعداء الله، ومحبتهم، والتودد إليهم، لأن ذلك يناقض حقيقة الإيمان، فمن أحبَّ اللَّهَ أبغض أعداءه، ولا يجتمع في قلبٍ واحدٍ، محبَّةُ الله ومحبَّةُ أعدائه، على ذلك درج المسلمون، وبذلك عزُّوا وسادوا، ولا يدخل في ذلك مداراة أهل الشرِّ والفجور، فإن المداراة غير الموالاة والمحبة، أما أن ينخرط الإنسان مع الفُسَّاق والكفار، ويسايرهم على أهوائهم، كما يفعله بعض الحكام اليوم، زعماً منهم أنهم بمجاراتهم لهم، والتودد إليهم، يتقوَّون بهم ويعتزون، فهذا من ضعف الإيمان، ووساوس الشيطان، فإن العدوَّ مهما قدّمتَ له من محبة وولاء يبقى عدواً يتربص بك الدوائر، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿بشِّرِ المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أيبتغون عندهم العزة؟ فإن العزة لله جميعاً﴾.

* * *